

كنت كلما ضاقت علي الدنيا أذهب لزيارة سيدنا زكريا، النبي الشهيد في المسجد الكبير قرب قلعة حلب . إنه النبي الذي عهد الله تعالى إليه بكفالة سيدتنا مريم العذراء (رضي الله تعالى عنها)، فأجد العزاء وأدعو الله تعالى أن يفرج الكرب، وينزاح الكرب بفضله وكرمه.

وفي أحد الأيام قررت الذهاب لهذا المسجد كي أتبارك بهذا النبي الكريم وأشعر بالأمان والطمأنينة وأنا أصلي في بيت الله، وأقرأ بعض آيات الله التي تنور قلبي وبصيرتي. وفي طريقي إلى هذا المسجد صادفت سائحا يبدو عليه الحيرة وكأنه تاه عن الطريق المراد استوقفني وسألني باللغة العربية الفصحى قائلاً: السلام عليكم. قلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

لم أسأله عن حاجته ولا عن اسمه أو جنسيته، فقد كنت أعلم أن الأجانب لا يحبون الفضول. قلت له فقط أنني أستطيع المساعدة إن كان يريد شيئاً ما.

قال: أنا من أميركا، وقد جئت لهذا القطر الإسلامي كي أكون أقرب إلى الله تعالى حيث أن معظم قاطني هذا المكان مسلمون وقد سبقوني بالإسلام بأشواط كثيرة، لعلني أتعلم منهم حيثيات هذا الدين، فأنا حديث العهد به بعد. أيقنت أنه الدين الصحيح، ولكني لا أعلم كيف أقوم بشعائره وفرائضه بالشكل التام الذي يرضى عنه الله تعالى كي أفوز بقربه.

قلت: كيف أستطيع مساعدتك أيها الأخ الكريم.

قال: أنا ضللت الطريق ، وأريدك أن ترشدني إليه إن أمكن.

قلت: على الرحب والسعة. فأني طريق تبغي؟

قال: طريقه هو...

قلت: وهل بدأت بالخطوة الأولى؟

قال: نعم أعتقد أنني قطعت بعض الخطوات وأنا لازلت في أول الطريق. وأتطلع إلى من يرشدني إليه. فهو بغيتي.

قلت: ماذا تعلمت في هذه الخطوات التي قطعتها؟

قال: قرأت في كتب الأولياء أن أول الطريق محبة. فدخلت مدرسة الحب. وأحببت قطتي ولكنها ماتت. فحزنت عليها. ولكني علمت من هذه الكتب أن علي أن أحب كل شيء كي أتدرب على حبه، ففتشت عن الحب عند البشر. أحببت إحدى الفتيات وهمت بحبها، واعتقدت أن حبي لها هو الحب بعينه، ولكني اكتشفت أنه إحدى المحطات في طريقي إلى حبه.

قلت: ماذا أحببت في هذه الفتاة؟

قال: جمالها وأنسها. ولكني كنت أبغي الجمال المطلق فأدركت أنه لا وجود له عند البشر، وكنت أبغي الأنس المطلق، ولا يمكن لبشر أن يكون دائم الأنس.

قلت: حسناً.. لعلك وصلت بعد هذه التجربة إليه.

قال: هل تعتقد أن طريقه خطوة واحدة يخطوها المرید فيصل بهذه السهولة إليه؟
قلت: هو الحب أولاً وأخراً.

قال: نعم... أولاً وأخراً، ولكن بينهما مراحل عديدة كان علي أن أجتازها.
شعرت بنقصي وجهلي، واستصغرت نفسي... أنا المسلم منذ نعومة أظفاري، لم أخطو هذه الخطوات الذي خطاها هذا الحديث العهد بالإسلام. قلت في نفسي: لقد سبقني هذا الشاب بأشواط في طريق المحبوب.

قلت: أستميتك عذراً، هلا حدثتني عن هذه الخطوات ببعض التفصيل كي أدرك تمام ما تبغي؟

قال: لا بد أنك تعلمها أكثر مني، ولكني سأسردها عليك. أول الطريق محبة جارفة تدفعك إليه، محبة تشدك إليه، محبة جارفة تجعلك تصبر إليه ولا تستطيع فراقه، محبة لا يمكن وصفها مهما حاولت أن أشرحها لك.

قلت: هل أستطيع فهمها لوحدي؟

قال: أعتقد أنك لن تستطيع فهمها إن لم تتذوقها حقاً.

شعرت بالخجل منه ومن نفسي. هذا الأجنبي، الغير عربي يمارس الحب بينما أنا أصفه من بعيد وأعلق عليه، ولكني لم أعيشه حقيقة.

استطرد قائلاً: محطة الحب الأولى هي المرحلة الابتدائية، و مدرسة الحب هذه تخرج طلابها ليكملوا دراستهم في المرحلة الإعدادية.

قلت: هل يعقل أن يكون بعد الحب مرحلة أرقى؟

قال: نعم، عندما ندرك الحب، ندرك عظمة المحبوب. وندرك أخطاءنا فنتعلم الكثير في هذه المدرسة. ففيها مراحل كثيرة ومواد كثيرة ندرسها ولا ننتقل إلى المرحلة الأعلى إلا إذا نجحنا فيها.

قلت: حقاً... إنه عالم غريب أسمع به لأول مرة.

قال: كيف تكون مسلماً وعربياً ولا تمر بهذه المراحل. كنت أظن أن كل المسلمين العرب قد مروا بهذا الطريق وهم يسعون للأعلى.

قلت: لا يا صديقي... فهذه المراحل التي نتحدث عنها هي جائزة ربانية وامتنياز خاص يحصل عليه الفائزون والمصطفون. لا عليك... هلا أكملت لي قصة هذه المدارس التي تخرجت منها؟ ما هي المواد التي تدرس فيها؟

قال: بعد الحب، تأتي المعرفة، وفي المعرفة تدرك شيئين مهمين، أولهما معرفة الحبيب وقدره، والثانية معرفة نفسك وقدرك وحدودك. فعندما تعلم بشرتك بأخطائها وذنوبها، تشعر بالبدء باليأس والخوف من استطاعتك بالاستمرار في هذه المدرسة، فالمواد أثقل من أن تتحملها، بعد أن تشعر بالأنس والقرب في مدرسة الحب، تشعر بالبعد والفراق والوحشة أيضاً، ويتبع ذلك لوم النفس الشديد، النفس التي أبعدت عن المحبوب بسبب ذنوبها وأخطائها. وبعد الندم والتوبة والإنابة إليه، تجد يده الرحيمة تأخذ بيدك وتقربك منه.

وتبدأ مرحلة الشوق المحرق، وتطلب المزيد من القرب، فتبدأ مرحلة الامتحان كي تنال شهادة إطفاء الشوق واستبداله بالقرب. مواد هذا الامتحان هي الابتلاءات والصبر ثم الشكر وآخرها الرضا.

قلت: هل نجحت في هذا الامتحان وتخرجت؟

قال: بلى. والحمد لله الذي أمدني بقوته وجعلني أنجح في كل المواد. ثم انتقلت إلى المرحلة الثانوية.

قلت: وهل هناك مرحلة أخرى بعد كل ما نلته. أعتقد أنك وصلت أخيراً. فلماذا تسأل عن الطريق؟

قال: لا، ليس بعد.

قلت باستغراب ودهشة: ماذا درست في المرحلة الثانوية؟

قال: درست المثابرة وامتحن في الزهد وإهمال حظوظ النفس.

قلت: بالطبع بما أنك تفوقت في المراحل الأولى فأنت من المتفوقين أيضاً في هذه المرحلة. قال: لو كنت بهذه الثقة بالنفس والاعتماد عليها لرسبت ولرجعت إلى أقل من المرحلة الابتدائية.

قلت وقد نفذ صبري: ماذا...؟ هذا غريب حقاً...! إذا كيف نجحت وماذا بعد هذه المرحلة... وفي أي مرحلة أنت... وهل هناك جامعة ودكتوراه أيضاً...؟

قال مبتسماً: نعم بالتأكيد... إن ما تتوقعه صحيح. ولكن لا تستعجل الأمور، لم أُنل الدكتوراه بعد. بعد تخرجي من المرحلة الثانوية، دخلت الجامعة وبدأت أدرس أدب المثل بين يديه، والشوق والتلاشي في حضرته كي أستطيع أن أرى نوره الساطع. فأدركت أن أول الطريق الحب، ومراحله: الخوف، التوبة، الندم، الامتحان بالصبر، والشكر، والرضا، والشوق، ثم يأتي التلاشي ونعيم الحب بالقرب من المحبوب.

قلت: أرى أن هذا الطريق يبدأ بالحب وينتهي بالحب.

قال: نعم. يأخذك إليه بالحب، فتتعلم كيف تحافظ عليه في مراحل عليك أن تمر بها، ثم تعود إليه لتتعم بحبه. هذا هو ملخص القضية.

قلت: بهذه البساطة، وبهذا الإيجاز. طريق طويل وعر المسالك، كثير الهضاب، فيه القمم المرتفعة للجبال الشاهقة الوعرة، كما فيه الوديان الخطرة، ثم تشعرني بسهولة المرور فيه...!

قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. هو الذي يعطيك القوة التي لم تكن لتملكها لولاه... إنه هو يبدأ ويعيد، يبدأ بالحب ويعيدك إليه. فإن رضي بك، كنت فيه من الفائزين ورأيت المر حلواً، والعسر يسراً، لأنك لا ترى إلا هو، ولا تنظر إلا إليه، ولا يشغلك عنه شيء، فكيف تشعر بالصعاب وهو معك أينما كنت، وأنت تشعر به يحنو عليك ويرشدك إليه ليضمك إلى محبيه...؟

قلت: أراك قد تخرجت من الجامعة وحصلت على الدكتوراه .. فكيف تقول لي أنك لا زلت في أول الطريق وتبحث عن من يدلك عليه...؟ أنت الذي تدل الآخرين عليه...! قال: أيها الصديق... لا تقتلني بمدحك... لا كمال إلا للرسول صلى الله عليه وسلم والأنبياء، فهل أغر بعلمي فأكون من المطرودين... لا يا أخي، أنا الفقير إلى الله تعالى... هو قادر على أن يسلبني كل ما وهبني إياه . وكيف اغتر بعلمي وأطمئن والصحابة المبشرين بالجنة كانوا سيكون قبيل موتهم خوفا من أن يكونوا من المحرومين...؟ قلت: الحقيقة يا أخي، أنني أنا الذي ضللت الطريق... فهل تدلني عليه...؟

فاطمة نوال بازرباشي